ولاية تيبازة: محطات تاريخية ومواقع أثرية

عبدالقادر دحدوح
المركز الجامعي لتيبازة

مقدمة:

تعد هذه المداخلة في حقيقة الأمر تمهيدا لأعمال الملتقى، باعتبارها مداخلة افتتاحية، وهي تهدف إلى تقديم نبذة عن مختلف المحطات التاريخية التي مرت بها ولاية تيبازة، بداية من عصور ما قبل التاريخ، مرورا بالعصور القديمة، ثم العصر الاسلامي، إلى غاية نهاية الحكم العثماني.

وإلى جانب النبذة التاريخية، تهدف المداخلة إلى تقديم لمحة عن اهم المواقع الأثرية التي تزخر بها الولاية، بداية من مواقع فترة ما قبل التاريخ، على غرار مغارة شنوة، وسيدي السعيد، ومواقع عين تاقورايت، وشرشال، وبوسماعيل، ثم مواقع الفترات القديمة، بما فيها البقايا الأثرية البونية، بكل من قوراية، وشرشال، وتيبازة، ومواقع ومعالم الفترة النوميدة وما بعدها الى غاية العهد البيزنطي، مثل الضريح الملكي الموريطاني، والبقايا الأثرية لمدينتي شرشال وتيبازة.

وإلى الفترة الاسلامية تم الاشارة الى معالم مدينة شرشال والقليعة، على غرار مسجد المائة عرصة، وضريح سيدي ابراهيم الغبريني بشرشال، ومسجد سيدي علي بن مبارك، والمسجد العتيق، وبرج القليعة.

أولا - عصور ما قبل التاريخ:

يرجع استقرار الإنسان بولاية تيبازة إلى عصور ما قبل التاريخ، حيث تم العثور على مواقع أثرية عديدة يرجع تاريخها إلى فترات مختلفة، بداية من العصر الحجري القديم الأسفل، وصولا الى العصر الحجري الحديث[1].

فأما بالنسبة لفترة العصر الحجري القديم الأسفل، فمن أهم المواقع الأثرية التي تعود الى هذه الفترة نذكر موقع بوسماعيل، وموقع شنوة، وموقع بضواحي دوادة، وموقع

بالقرب من الضريح الموريطاني، حيث عثر في هذه المواقع على أدوات حجرية عبارة عن ذات الوجهين.

وإلى العصر الحجري القديم الأوسط ترجع عدة مواقع أثرية، من أهمها نذكر موقع سيدي السعيد الذي يقع على ساحل المقبرة الشرقية من المدينة الأثرية لتيبازة، والتي فيها تم العثور على أدوات حجرية ترجع الى الحضارة الموستيرية والحضارة العاترية، ونفس الأمر ينطبق على موقع كوالي بعين تقورايت، الذي يعد نموذجا للتواصل التاريخي، بداية من العصر الحجري القديم الأوسط ممثلا في الحضارة العاترية، وصولا الى العصر الحجري الحديث، ومن المواقع أيضا موقع رأس الأحمر بشرشال، الذي يبعد عن مدينة شرشال غربا بـ3كلم، وموقع رأس الأبيض على بعد 5 كلم شرق شرشال، وكلاهما يرجع الى الحضارة الموستيرية.

العصر الحجري القديم المتأخر هو الآخر حاضر بقوة بالمنطقة، ومن بين المواقع التي ترجع الى هذه الفترة موقع كوالي بعين تقورايت، الذي عثر فيه على بقايا للحضارة الابيرو مغربية، ونفس الحال بالنسبة لموقع الصخر المسطح، وموقع رولاند بشنوة،

وخلال العصر الجري الحديث يتواصل التعمير البشري بمنطقة تيبازة، حيث عثر الباحثون على عدة مواقع ترجع الى هذا العصر، والتي من أهمها نذكر موقع مغارة راسل بشنوة، التي عثر فيها على أدوات حجرية، وعظمية قزمية، وحلي وفخار، وعلى بعد 100م عن هذه المغارة تقع مغارة رولاند، التي هي الأخرى عثر فيها على أصداف بحرية، وبقايا فخارية تعود الى العصر الحجري الحديث، وموقع رأس المسكوتة الذي يوجد بقرية الحمدانية على بعد 8كلم شرق مدينة شرشال.

ثانيا - العصور القديمة :

ترجع أقدم المعالم والمواقع الأثرية بمنطقة تيبازة التي ترجع إلى العصور القديمة الى الفترة البونية، حيث ينسب تعمير ثلاث مدن الى البحارة الفنيقيين، وتتمثل تلك المدن في كل من تيبازة وشرشال وقوراية، فأما بالنسبة لتيبازة، فاسمها يعني الممر، ومن المحتمل جدا أنه اسم بوني، اما شرشال فكانت تعرف باسم ايول، والتي ربما أخذت اسمها من اسم آلهة فنيقية[2]، اما قوراية فقد كانت تعرف باسم جونوجو (**Gunugu**)، وهي تقع على بعد 33كلم شرق مدينة شرشال[3].

كانت هذه المدن في بداية الأمر في شكل مرافئ بحرية لرسو سفن التجار الفنيقيين، قبل أن تصبح نواة مدن عمرت عصورا طويلة، وقد أجريت حفريات بهذه المدن، وفيها تم العثور على بقايا بونية عديدة، ففي مدينة تيبازة عثر على فخاريات، وأنصاب تؤرخ بالقرن الاول والثاني ميلادي، كما عثر على مقبرة بونية بالقرب من الميناء، وكانت القبور تنحت في الصخر، وعلى حسب البقايا الاثرية المكتشفة يرجع التواجد الفنيقي بمدينة تيبازة إلى القرن السادس قبل الميلاد[4].

ونفس الحال بالنسبة لمدينة شرشال التي كانت آنذاك تضم مناء تجاريا والآخر عسكريا، وقد تم الكشف عن بقايا فخارية وأنصاب عليها كتابات بونية، اما قوراية فقد تم العثور على مقبرة بونية اتبعت فيها نفس طريقة الدفن المعهودة عند الفنيقيين بالمشرق، مما يوحي بتأثر السكان المحليين بالثقافة الفنيقية خاصة مع القرن الرابع قبل الميلاد وما يليها، فضلا عن البقايا الفخارية التي اكتشفت بها[5].

بعد نهاية الحرب البونية الثانية، وانهزام قرطاجة أمام الرومان استغل ماسينيسا الوضع وضم مملكة الماسيل التي كانت تسيطر على الغرب الجزائري، الى مملكة الماسيسيل التي كانت عاصمتها سيرتا، مشكلا المملكة النوميدية، ومن ثم صارت منطقة تيبازة تابعة لمملكته[6].

وبعد مدة انتقلت عاصمة هذه المملكة من سيرتا الى ايول(شرشال)، وقد كان ذلك في عهد الملك مسيبسا الذي حكم بين سنتي 148 - 118ق.م، والذي تم الكشف عن كتابة جنائزية تحمل اسمه، عثر عليها بمدينة شرشال[7].

وعلى حسب ستيفان غزال يحتمل ان منطقة تيبازة -بما فيها مدينة ايول- انها صارت تابعة لمملكة موريطانيا منذ نهاية الملك النوميدي يوغرطة في سنة 105ق.م، ولا يتأكد تاريخ انضمام هذه المدينة الى مملكة موريطانيا إلا في عهد بوكوس الثاني، الذي صيرها عاصمة لمملكته التي ضمت بعد سنة 38 ق.م مملكة نوميديا الغربية، وأصبحت حدودها تصل الى وادي ملوية غربا، والوادي الكبير شرقا[8].

وبعد وفاة الملك الموريطاني بوكوس من دون ان يكون له عقب يخلفه في الحكم، قام الامبراطور الروماني اغسطس بتعيين يوبا الثاني ملكا لموريطانيا بداية من سنة 25ق.م، واتخذ هذا الأخير شرشال عاصمة لمملكته هذه، فقام بتجديد وتوسيع بناياتها، وأطلق عليها اسم

القيصرية، واستمر في الحكم الى غاية وفاته سنة 23م، ثم خلفه ابن بطليموس، واستمرت في عهده مدينة شرشال عاصمة لمملكة موريطانيا القيصرية الى غاية سنة 40م، وهي السنة التي فيها خدع الرومان الملك بطليموس، بعد أن تمكنوا من اعدامه، وبذلك قضوا على آخر الملوك النوميديين، وضم أراضيهم ومملكتهم بشكل نهائي الى الأمبراطورية الرومانية[9].

وبعد دخول الوندال الى شمال افريقيا في سنة 429م، وتمكنهم من إزاحة الرومان منها، دخلت منطقة تيبازة في حكمهم، منذ حوالي سنة 430م، وخلال هذه الفترة تعرض سكان المنطقة الى اضطهاد ديني من قبل الامبراطور هينريك «hinérik» (477-484م) مما دفعهم بالهجرة إلى إسبانيا[10]، ولم يرجعوا إلى موطنهم إلا بعد تمكن البيزنطيين من إزاحة الوندال عن شمال افريقيا، وبسط سيطرتهم على المنطقة منذ سنة 534م، وفي عهدهم كانت شرشال لا تزال عاصمة لمقاطعة موريطانيا القيصرية، إلا ان تغلب القبائل المورية واشتداد مقاومتهم دفع بالأمبراطور موريس في سنة 582م من حذف اسم مقاطعة موريطانيا القيصرية من أقاليمه، ومن ثم ألحقت مدينة شرشال بموريطانيا السطايفية[11].

وإلى الفترة النوميدية، يرجع الضريح المعروف باسم «الضريح الملكي الموريطاني»، او «قبر الرومية»، الذي يقع على بعد 15كلم جنوب شرق مدينة تيبازة، على الطريق الرابط بين تيبازة والجزائر العاصمة[12].

وإلى جانب هذا الضريح تم العثور بموقع تيبازة الأثري على عدة قبور تؤرخ بالفترة النوميدية، حيث تم العثور فيها على بقايا فخارية ترجع إلى ما بين القرنين الرابع والثاني قبل الميلاد[13].

كما ترجع إلى الفترة الرومانية وما تلاها من الفترات الوندالية والبيزنطية العديد من المعالم والمواقع الأثرية بولاية تيبازة، وإن كانت أهمها بمدينتي تيبازة وشرشال، ففي الأولى تم الكشف عن معالم كثيرة، من أهمها الفروم، والمسرح، والمعبد الكبير، والمعبد المجهول، والبازيليكا الكبيرة، وبازيليكا القديسة سان صالصا، والمقبرة الغربية والشرقية، والحمامات وغيرها[14].

أما مدينة شرشال فقد تم الكشف عن بقايا عديدة من بينها الفروم، والمسرح، والملعب، والحمامات الشرقية، والحمامات الغربية، وغيرها، فضلا عن التحف المعروضة والمحفوظة بالمتحف الوطني لشرشال الذي يزخر بتحف عديدة على غرار لوحات الفسيفساء والتماثيل[51].

وبالاضافة إلى آثار مدينتي تيبازة وشرشال، فالمنطقة وعلى حسب خريطة الأطلس الأثري لستيفان غزال، تظهر بأنها غنية بالمواقع والمحطات الأثرية التي ترجع الفترة المذكورة، وهي تتوزع على مناطق مختلفة، بداية من موقع كارتيلي بالداموس وقوراية إلى الدواودة[16].

ثالثا - العصر الاسلامي:

تعد المعطيات التاريخية التي ترجع الفترة الاسلامية قليلة جدا حول منطقة تيبازة، على الرغم من استمرار عمران بعض المدن الهامة، على غرار شرشال وقوراية التي صارت تعرف باسم برشك، في حين تغيب مدينة تيبازة تقريبا في صورة شبه كلية، وكأن المدينة تعرضت لخراب تام، وهجرها الناس منذ أواخر العهد البيزنطي وبداية الفترة الاسلامية.

ولعل أقدم الاشارت التاريخية التي تخص المنطقة، ما سجله ابن خلدون مع مطلع القرن الرابع هجري(10م)، الذي يشير إلى أن مدينة شرشال خضعت إلى الثائر موسى بن أبي العافية، الذي يذكر عنه بأنه «ملك قواعد المغرب الاوسط، وهي تنس ووهران وشرشال والبطحاء»[17]، وفي سنة 319هـ دخل هذا الثائر عن الفاطميين، ودخل في طاعة الخليفة عبدالرحمن الناصر الأموي بالاندلس، ورغبه في ملك المغرب[18].

وفي نفس الفترة تحدث ابن حوقل (ت380هـ/990م) عن مدينتي شرشال وبرشك، قائلا: وشرشال (بكسر الشين وسكون الراء وفتح الشين الثانية) مدينة قديمة أزلية قد خربت، وفيها مرسى، وفيها آثار قديمة، وأصنام من حجارة، ومبان عظيمة، ومنها الى برشك مدينة كان عليها سور فتهدم، ولها مياه جارية، وآبار معين، وبها فواكه حسنة غزيرة، وسفرجل معنق كالقرع الصغار، وهو طريف وأعناب، الغالب على أهلها البربر، ولها بادية يشترون العسل من الشجر والأجباح لكثرة النحل بالبلد، وأكثر أموالهم الماشية، ولهم من الزرع والحنطة والشعير ما يزيد على حاجتهم[19].

وفي اواخر نفس القرن (4هـ/10م) يشير ابن خلدون إلى أن حماد بن بلكين لما كان واليا على أشير لابن أخيه الأمير باديس بن المنصور الزيري «حاربه بنو زيرى عند خروجهم على باديس سنى تسعين وثلثمائ،ة وهم راوي وماسكن واخوانهما، فقتل ماسكن وابناه، وألجأ راوي واخوته إلى جبل شنوه، وأجازهم البحر إلى الاندلس».

وفي القرن الخامس هجري (الحادي عشر ميلادي)، يتحدث البكري (ت487هـ/1095م) عن بعض المحطات بالمنطقة قائلا: «ويلي مرسى تنس الى الشرق مرسى جزيرة وقور، بينهما

أزيد من عشرين ميلا، وله نهر لطيف يصب في البحر، والجزيرة قريبة من البر...ثم مرسى شرشال، عليه مدينة عظيمة للأول غير مسكونة، وله أحسا ماء، يسكن بشرقيه وغربيه... وكانت لمدينة شرشال مبنى ارتدم، وفيها رباطات يجتمع إليها في كل عام خلق كثير»[20].

وخلال منتصف القرن السادس هجري (ق12م) يقدم لنا الإدريسي (ت560هـ/1164م) وصفا في غاية الأهمية عن مدينتي برشك وشرشال، حيث يقول عن مدينة برشك بأنها: «مدينة صغيرة، على تل، وعليها سور تراب، وهي على ضفة البحر، وشرب أهلها من عيون، وماؤها عذب، وافتتحها الملك المعظم رجار في سنة (-) وخمس مائة، وبها فواكه، وجمل مزارع، وحنطة كثيرة، وشعير»[21].

وعن شرشال يتحدث قائلا: «ومدينة شرشال صغيرة القدر، لكنها متحضرة، وبها مياه جارية، وآبار معينة عذبة، وبها فواكه حسنة كثيرة، وسفرجل كبير الجرم، ذو أعناق كأعناق القرع الصغار، وهو من الطرائف غريب في ذاته، وبها كروم، وبعض شجر تين، وما دار بها بادية، لأهلها مواش وأغنام كثيرة، والنحل عندهم كثير، والعسل بها ممكن، وأكثر أموالهم الماشية، ولهم من زراعة الحنطة والشعير ما يزيد على الحاجة»[22].

ومع أواخر القرن 6هـ/12م تحدث صاحب كتاب الاستبصار عن مدينة شرشال قائلا: «مدينة كبيرة فيها آثار للأول، وهي غير مسكونة، وفيها بنيان عجيب يسمى محراب سليمان قد علا في الهواء»[23].

وبعد ظهور الدولة الحفصية ببلاد المغرب الأدنى في سنة 625هـ، كانت خضعت المنطقة إلى حكم قبيلة مغراوة، حيث يذكر ابن خلدون بأن العباس بن منديل قائد مغراوة -الذي آلت إليه رياسة قبيلته منذ سنة 623هـ- استولى على مدينة برشك وشرشال، وكان مواليا للدولة الحفصية[24].

في سنة 683هـ تمكن زيري بن حماد من دخول برشك، والاستيلاء عليها بعد تغلب يغمراسن بن زيان على مغراوة، وانحصاره عنها، وبعد مهلك يغمراسن خلفه ابنه عثمان، وفي السنة الموالية (684هـ) خرج الى برشك، وحاصر بها زيري، ولم يقو على اخراجه منها[25].

وفي سنة 693هـ يذكر ابن خلدون أن عثمان بن يغمراسن الزياني حاصر ثابت بن منديل بمدينة برشك مدة أربعين يوما، وفر منها ثابت إلى المغرب الأقصى[26]، ومن ثم توالت عليها الحملات، وكانت تملكهم للمنطقة غير مستقر، حيث يذكر ابن خلدون ان

أمير مغراوة علي بن راشد بن محمد بن ثابت بن منديل في سنة 649هـ « توثب على بلاد شلف وتملكها، وغلب على أمصارها مليانة وتنس وبرشك وشرشال، وأعاد ما كان لسلفه بها من الملك»[27]، إلا ان هذا لم يمر عليه طويلا، حيث تمكن السلطان الزياني ابو ثابت في سنة 652هـ من استرجاع شرشال وبرشك ومليانة، وحاصر علي بن ثابت بمدينة تنس، ولم يفك عنه الحصار حتى قتل نفسه، وتفرقت من بعده قبيلة مغراوة ،وانقرض أمرهم، ودانت المنطقة للحكم الزياني[28].

وخلال الفترة الزيانية شهدت مدينة برشك (قوراية) بزوغ نجم عالمين جليلين، كانت لهما مكانة كبيرة بين أقرانهما من العلماء، ويتعلق الأمر بالشيخ أبو زيد عبدالرحمن، وأبو موسى عيسى، وفيهما يقول ابن خلدون: «فأما ابنا الامام منهم، فكانوا اخوين من أهل برشك من أعمال تلمسان، واسم أكبرهم أبو زيد عبد الرحمن، والاصغر أبو موسى عيسى، وكان أبوهما اماما ببعض مساجد برشك، واتهمه المتغلب يومئذ على البلد زيرم بن حماد بأن عنده وديعة من المال لبعض أعدائه، فطالبه بها ولاذ بالامتناع، وبيته زيرم لينتزع المال من يده فدافعه وقتل، وارتحل ابناه هذان الاخوان إلى تونس في آخر المائة السابعة، وأخذا العلم بها عن تلميذ ابن زيتون، وتفقها على أصحاب أبى عبد الله بن شعيب الدكالى، وانقلبا إلى المغرب بحظ وافر من العلم، وأقاما بالجزائر يبثان العلم بها لامتناع برشك عليهما من أجل زيرم المتغلب عليها، والسلطان أبو يعقوب يومئذ صاحب المغرب الاقصى من بني مرين جاثم على تلمسان يحصرها الحصار الطويل المشهور، وبث بها جيوشه في نواحيها، وغلب على الكثير من أعمالها وأمصارها، وملك عمل مغراوة بشلف، وحصر مليانة، بعث إليها الحسن بن أبى الطلاق من بنى عسكر، وعلي ابن محمد بن الخير من بنى ورتاجين، ومعهما لضبط الجباية واستخلاص الاموال الكاتب منديل بن محمد الكتاني، فارتحل هذان الاخوان من الجزائر، وأخذا عليه فحليا بعين منديل الكتاني، فقربهما واصطفاهما، واتخذهما لتعليم ولده محمد، فلما هلك يوسف بن يعقوب سلطان المغرب بمكانه من حصار تلمسان سنة خمس وسبعمائة(705هـ) ... وأقام بالملك بعده حافده أبو ثابت ... ووقع بينه وبين صاحب تلمسان من بعده يومئذ أبى زيان محمد بن عثمان بن يغمراسن وأخيه أبى حموا العهد المتأكد على الافراج عن تلمسان، وردا عمالها عليه، فوفى لهم بذلك، وعاد إلى المغرب، وارتحل ابن أبى الطلاق من شلف والكتاني من مليانة راجعين إلى المغرب، ومروا بتلمسان، فأوصى لهما أبو حمو، وأثنى عليهما حلة بمقامهما في العلم، واغتبط بهما أبو حمو، وبنى لهما المدرسة المعروفة بهما، وأقاما عنده

على مجرى أهل العلم، وهلك أبو حمو، وكانا كذلك مع ابنه أبى تاشفين، إلى أن زحف السلطان أبو الحسن إلى تلمسان، وملكها عنوة سنة سبع وثلاثين(737هـ)، وكانت لهما شهرة في أقطار المغرب، أسست لهما عقيدة صالحة، فاستدعاهما لحين دخوله، وأدنى مجلسهما، وشاد بمكرمتهما، ورفع جاههما على أهل طبقتهما، وصار يجمل بهما مجلسه متى مر بتلمسان، ووفدا عليه في الاولى التى نفر فيها اعيان بلادهما، ثم استنفرهما إلى الغزو، وحضرا معه واقعة طريف، وعادا إلى بلدهما، وتوفى أبو زيد منهما أثر ذلك، وبقى أخوه موسى متبوئا ما شاء من ظلال تلك الكرامة، ولما سار السلطان أبو الحسن إلى افريقية سنة ثمان وأربعين (748هـ) ...استصحب أبا موسى بن الامام معه مكرما موقرا، عالي المحل، قريب المجلس منه، فلما استولى على افريقية سرحه إلى بلده، فأقام بها يسيرا وهلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين (749هـ)، وبقى أعقابهما بتلمسان دارجين في مسالك تلك الكرامة موقرين فيها، طبقا على طبق إلى هذا العهد»[29].

وقد أورد ترجمتهما أكثر من مؤلف، ومن بينهم نذرك ابن مريم صاحب كتاب البستان، الذي يقول فيهما: العالمان الراسخان، والعلمان الشامخان، المشهوران شرقا وغربا، الحافظان العلامتان[30].

ومع اواخر القرن الخامس عشر ميلادي شهدت مدينة شرشال نزوح عائلات أندلسية كان لها الفضل في اعادة بعث الحياة من جديد في المدينة، وفي نفس الفترة اشتد تسلط الاسبان على السواحل الجزائرية، فدعى سكان مدينة الجزائر عروج ليساعدهم، وقبل دخوله مدينة الجزائر التي كانت محروسة من قبل قوات اسبانية فضل زيارة مدينة شرشال، التي كان سبقه اليها أحد مساعديه السابقين، ونصب نفسه ملكا عليها ، فقام عروج بقتله واستعاد المدينة[31].

وفي سنة 1530 قاد أندري دوريا حملة على شرشال انتقاما من خير الدين، الذي ازاح الحامية الاسبانية المرابطة بالقرب من مدينة الجزائر، ودخل المدينة، ونهب خيراتها، وفك أسرى المسيحيين الذين كانوا أرقاء بها، وقد تلقى استماتة قوية من سكانها، خاصة وأن فيهم المورسكيين الذين خبروا الحرب مع الاسبان، وتمكنوا من صده قبل ان يقرر الرحيل، بعد أن علم بقدوم نجدة خير الدين للمدينة[32].

وخلال هذه الفترة أورد الحسن الوزان نصا في غاية الأهمية عن مدينتي برشك(قوراية) وشرشال، فاما بالنسبة للأولى فيقول: برشك وهي مدينة قديمة بناها

الرومان على البحر المتوسط على مسافة أميال عديدة من المدينة السابقة(مستغانم)، وهي مأهولة جدا بسكان أجلاف يعمل أكثرهم في حياكة أقمشة الكتان، وهم رجال مهرة، وبواسل كالأسود، ومن عادة كل واحد أن يرسم على خديه وعلى إحدى يديه صليبا أسودا، وصليبا في راحة يده، تحت الأصابع، ويحتفظ كل الجبليين المجاورين لمدينة الجزائر وبجاية بهذه العادة، ويروي لنا المؤرخون الأفارقة أن عددا لا يحصى من البلاد والسواحل والجبال كانت تحت سلطة القوط، وأصبح الكثير من المغاربة نصارى، وقد أصدر ملوك القوط أمرا بعدم استيفاء أية جزية من الذين كانوا نصارى، وفي وقت دفع الضريبة كانوا يدعون جميعا أنهم نصارى، ولكن القوط الذين كانوا يجهلون لغة السكان وعاداتهم لم يكونوا قادرين على التمييز بين النصراني الحقيقي ومدعى النصرانية، فأعطيت الأوامر عندئذ للنصارى باستعمال الوشم بهذه الصلبان، وعندما انتزعت السلطة من القوط، عاد كل الناس الى الديانة الاسلامية، ولكن مع مرور الزمن بقيت عادة الوشم بذهذه الصلبان، وهناك عدد لا يحصى من الناس لا يعرفون سبب ذلك، ولأمراء موريتانيا شأن عامة الناس هذه العادة نفسها، وهو رسم صليب على الخد بواسطة شفرة سكين، ونرى في اوربا بعض الأشخاص يصنعون نفس الشيء مثل أولئك، وتعيش مدينة برشك في رخاء، ولاسيما لكثرة التين، وتنتج الأرياف الجميلة الواقعة حولها الكتان والشعير بكمية كبيرة، وسكانها حلفاء وأصدقاء لسكان الجبال المجاورة، وبفضل دعم هؤلاء استطاعت أن تحمى نفسها خلال مائة عام، وان تظل حرة من الضريبة حتى عهد التركي بربروس الذي فرضها بشكل ثقيل، وينقل كثير من أهل برشك التين والكتان بحرا الى الجزائر وبجاية وإلى تونس، ويجنون من وراء ذلك كسبا طيبا، ولا يزال في المدينة كثير من آثار أبنية وعمارات رومانية، وقد بنيت الأسوار من مواد أنقاضها[33].

أما مدينة شرشال فيتحدث عنها قائلا: تلك هي مدينة كبيرة جدا، وموغلة في القدم، بنيت بدورها في عهد الرومان على ساحل البحر المتوسط، وكان يحيطها في الماضي سور يعادل ثلاثة أميال، وهو طول جدار سورها الشديد الارتفاع والمبني بحجارة ضخمة منحوتة، ويظهر فيها بجوار البحر جامع كبير عال جدا، لا يزال محرابه قائما حتى الآن، وهو مستور كليا بالرخام من الداخل، وفي عصر مضى كانت هناك قلعة كبيرة قائمة فوق جرف صخري، يمكن منها مراقبة البحر على مسافة شاسعة، وتحيط بالمدينة أراض زراعية طيبة، ومع أن هذه المدينة تعرضت لتخريب شديد على أيدي القوط، فإن قسما منها

كان مأهولا بكثرة إبان الحكم الاسلامي، واستمر هذا الوضع مدة خمسمائة عام تقريبا، وبعدئذ هجرت المدينة أعقاب الحروب بين ملوك تلمسان وملوك فاس، وظلت خاوية خلال مدة تقارب ثلاثمائة عام حتى سقوط غرناطة بأيدي النصارى، وحينئذ قصدها كثير من الغرناطيين، وأعادوا بناء قسم كبير من منازلها، وكذلك قلعتها، وزرعوا أراضيها، ثم بنوا كثيرا من سفن الملاحة، وكانوا يزاولون كذلك أعمال صناعة الحرير، لأنهم وجدوا كمية لا تحصى من أشجار التوت الأبيض والأسود، وتحسنت احوال هؤلاء يوما بعد يوم، حتى أنهم أصبحوا يسكنون مائتين وألفا من البيوت، ولم يخضعوا إلا لبربروس، وكانوا يدفعون له ضريبة لا تزيد عن ثلاثمائة دينار في السنة[34].

وإلى هذه الفترة ترجع مجموعة من المعالم الأثرية، وهي تتوزع بالخصوص على مدينتي شرشال والقليعة، فأما بالنسبة لشرشال فمن أهم معالمها الإسلامية نذكر: جامع المائة عرصة، جامع السوق، ضريح سيدي ابراهيم الغبريني، فضلا عن المساكن التي لا زالت تحافظ على أصالتها المعمارية والفنية بالمدينة القديمة لشرشال والمعروفة باسم عين القصيبة[35]، أما مدينة القليعة، فمن أهم معالمها الأثرية نذكر زاوية وضريح ومسجد سيدي علي بن مبارك، والمسجد العتيق، والبرج العسكري[36].

خاتمة:

وفي ختام هذه المداخلة المتواضعة يمكن القول أن ولاية تيبازة مثلما يظهر للعيان أنها غنية بمعالمها ومواقعها الأثرية فهي أيضا غنية بتاريخها العريق الموغل في القدم، خاصة وانها كانت في الفترة القديمة تضم مدينة اتخذت عاصمة لمملكة موريطانيا القيصرية منذ العهد النوميدي ثم صارت عاصمة لمقاطعة موريطانيا القيصرية طيلة الفترة الرومانية الى غاية سنة 582م.

إلا أن الفترة التي أعقبت هذا التاريخ شهدت فيها المنطقة تراجعا رهيبا إلى درجة أنها تغيب عند أغلب الكتاب القدامى ويصعب علينا كتابة تاريخ متسلسل لها خاصة خلال الفترة الاسلامية، ومع ذلك يمكن رسم صورة عن أهم المحطات التاريخية التي شهدتها المنطقة خلال الفترة المذكورة.

الهوامش:

1) عن مختلف المحطات الأثرية لفترة ما قبل التاريخ بولاية تيبازة أنظر:

ROUBET. E.F, Les bifaces du littoral à l'Ouest d'Alger (paléolithique inferieur), IN : Libyca, T.XVII, 1969, PP. 17-31. ROUBET. G, Atlas préhistorique de L'Algérie, , IN : Libyca, T. IV, 1956, feuille n°1-2. BETROUNI. M, Les grottes préhistoriques du plateau littoral de Tipaza : Contexte géomorphologique et chrono stratigraphique, IN : Libyca, T. XXXV, 1998. PP.23-55. BRAHIMI.C, Les outils biseautés du gisement de Rassel (Chenoua), IN : Libyca, T. XV, 1967, PP.65-72.

2) بوطبة(محفوظ)، دراسة أثرية لنماذج من العمارة العثمانية في مدينة شرشال، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الاسلامية، معهد الآثار جامعة الجزائر، 2007 – 2008، ص19. أنظر أيضا: زعبي (الزهرة)، أهمية ميناء ايول قيصرية (شرشال الحالية)، عن كتاب أعمال الملتقى الدولي: الموانئ الجزائرية عبر العصور سلما وحربا، منشورات مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط، جامعة الجزائر2، 2009، ص250 – 253. GSELL.S, Atlas Archéologique de l'Algérie, 1973, Feuille N°4, P9.

3) غانم (محمد الصغير)، التوسع الفنيقي في غربي البحر الأبيض المتوسط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992، ص97 – 98. أنظر أيضا:

MISSONNIER.F, Fouilles dans la nécropole punique de Gouraya (Algérie), in : Mélanges d'archéologie et d'histoire, T.50, 1933, PP.87-119.

4) CINTAS.P, Fouilles puniques à Tipasa, IN : syria, V°30, N°1, 1953, P178. BARADEZ.J, Les nécropoles de Tipasa : Tombes du cimetière occidental côtier, IN : Antiquités africaines, 1968, PP.77-93. LANCEL.G, et BOUCHNAKI.M, Tipasa de Maurétanie, Alger, 1990, P.9.

5) غانم (محمد الصغير)، التوسع الفنيقي في غربي البحر الأبيض المتوسط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992، ص97 – 98. أنظر أيضا: MISSONNIER.F, op-cit, PP.87-119.

6) السليماني (أحمد)، تاريخ ملوك البربر في الجزائر القديمة، درا القصبة للنشر، 2007، ص101.

7) بوطبة(محفوظ)، المرجع السابق، ص20–19.

8) اكصيل (اصطيفان)، تاريخ شمال افريقيا القديم، ترجمة محمد التازي سعود، مطبوعات اكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 2007، ج6، ص 238–237.

9) اكصيل (اصطيفان)، المرجع السابق، ج8، ص249–179.

10) قداش (محفوظ)، الجزائر في العصور القديمة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص240.

11) بوطبة(محفوظ)، المرجع السابق، ص22–21.

12) عن هذا المعلم أنظر: اكصيل (اصطيفان)، المرجع السابق، ج8، ص238–230. عيبش(يوسف)، الضريح الملكي الموريطاني، عن كتاب: الجزائر النوميدية، منشورات المتحف الوطني سيرتا، قسنطينة، 2007، ص116–108. أنظر أيضا: بوشناقي (منير)، الضري الملكي الموريطاني، ترجمة عبدالحميد حاجيات، منشورات الوكالة الوطنية للآثار وحماية المعالم والنصب التاريخية، الجزائر، 1991.

13 (LANCEL.G, L'Algérie antique de Massinissa à saint Augustin, Paris, 2008, p51.

14) عن آثار هذه المدينة أنظر:. أنظر أيضا:

LANCEL.G, et BOUCHNAKI.M, Tipasa de Maurétanie, Alger, 1990. GSELL.S, Tipasa, ville de la Maurétanie césarienne, in : Mélanges d(archéologie et d'histoire, T.14, 1894, PP. 291-450.

15) عن آثار هذه المدينة أنظر:. أنظر أيضا:.Benseddik.N, Ferdi.S, Leveau.Ph, Cherchel, Alger, 1983, p-17-69.

16) عن هذه المواقع أنظر: GSELL.S, op-cit, Feuille N°4, 5, 13.

17) ابن خلدون (عبدالرحمن)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تقديم عبادة كحيلة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2007، ج4، ص141.

18) ابن خلدون (عبدالرحمن)، المصدر السابق، ج4، ص141. أنظر أيضا: عبدالحميد(سعد زغلول)، تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف، الاسكندرية، 1990، ج3، ص110 - 111.

19) ابن حوقل (ابي القاسم النصيبي)، كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص78.

20) البكري (أبو عبيد)، كتاب المسالك والممالك، حققه وقدم له وفهرسه ادريان فان ليوفن، و أندري فيري، الدار العربية للكتاب-المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، تونس، 1992، ج2، ص756.

21) الادريسي(ابو عبدالله محمد الشريف)، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، ج1، ص258-257.

22) نفسه، ص258.

23) مؤلف مجهول، مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبدالحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، د.ت، ص132.

24) ابن خلدون (عبدالرحمن)، المصدر السابق، ج7، ص64.

25) نفسه، ج7، ص99.

26) نفسه، ج7، ص93.

27) نفسه، ج7، ص68.

28) نفسه، ج7، ص69، 120.

29) نفسه ، ج7، ص 388 - 389.

30) ابن مريم(ابو عبد الله محمد التلمساني)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص123.

31) وولف (جون ب)، الجزائر وأوروبا 1500 - 1830، ترجمة وتعليق ابوالقاسم سعدالله، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص30.

32) نفسه، ص41-40.

33) الوزان(الحسن الزياتي)، وصف افريقيا، ترجمة عبدالرحمن حميدة، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2005، ص 401، 404.

34) نفسه، ص404 - 405.

35) عن هذه المعالم الأثرية أنظر: بوطبة(محفوظ)، المرجع السابق.

36) عن هذه المعالم الأثرية أنظر: جلال(جميلة)، الأعمال المعمارية للداي مصطفى باشا في مدينة الجزائر وضواحيها من خلال وثائق الأرشيف والمعالم القائمة (1212 - 1220هـ/1798 - 1805م)، دراسة أثرية معمارية وفنية، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في الآثار العثمانية، معهد الآثار جامعة الجزائر2، 2012، ص67 - 79.